يانيس ريتسوس

– غسان زقطان
– هاشم شفيق
– صلاح بوسريف
– محمد علي اليوسفي
– خالد درويش

اقتراحات الجار الهادئ

غسان زقطان*

تأخذ مسالك الحنين في الشعر اليوناني المعاصر طرقها وإشاراتها من تاريخ اليونان، أكثر مما تأخذ من جغرافية اليونان .

في لقاء مع الموسيقي اليوناني ميكس ثيودراكيس أجريته في منزله بـ «أثينا» العام 1988، ما يشي بهذا المعر: «اليونان ليست في الغرب أو الشرق، اليونان تقع في اليونانَ ..» يقول ثيودراكيس(1) .

وريتسوس الذي حفر ممره المذهل بإبرة صغيرة لم يبتعد كثيراً عن هذه الرحلة وبخيوط غير مرئية كان يصل بين الجزر ويثبتها في الماء في استعادة شخصية لعالم لم نعد نبصر تنفسه في الظلال والزوايا، أو أننا انشغلنا تماماً عنه وأخذتنا منه – إلى غير رجعة – المشاهد الكبيرة .

بشروط إنسانية بسيطة وعميقة، في آن، ينسل يانيس ريتسوس خيوطه السرية من «النسيج العام» ويعيد ترتيب ما يشبه «سجادات» صغيرة تكفي للدعاء والصبر والتأمل والريبة والخوف ... وكل هذه المقتنيات المهملة التي تمنح شخوصه وأمكنته وانشغالاته قوة المقاومة المذهلة التي تتمتع بها وبراءة الحنين العظيم الذي يقودها نحو الحياة .

هكذا تفادى «يانيس ريتسوس» الحنين والبطولة بمظهرهما المعلن ... عندما ذهب مباشرة ودون مواربة، إلى النواة العميقة للأشياء وبدأ بمثابرة عجيبة في مسح الغبار عن أملاك العائلة القديمة، المنسية تماماً في القبو تحت غرفة الاستقبال مباشرة، زجاجات النبيذ وحزم القشّ، المقاعد الهزازة، كبب الخيطان، الساعة الرملية وساعة الجيب، المعاطف المهجورة، الورق المطوي والمناديل ...

وفيما هو يتحدث، بالضبط، عن اليونان والمنفى وحكم العسكر والمعتقلات ... كان يواصل مسح الغبار عن حياتنا وبمنديل من الخيش القديم يمسح زجاج النوافذ من الخارج ليترك كوّة نبصر من خلالها مصائر الآخرين وخطّ السرو وثمرة صغيرة من التوت البري في قلب الغابة .

هل كان هذا هو ما دفع جيل كامل من الشعراء العرب في خضم السبعينيات لاكتشاف ممر هذا الشاعر الذي يقطن قريباً من منازلنا، على الضفة الثانية من البحر، مثل عرق طويل ومتصل من الذهب بدا الممر في تلك السنوات، أو خط اليابسة الصخري المحفور في الماء الأزرق، وبينما كان جيل السبعينيات العربي من الشعراء المحمّل بجدل ضار بين الغنائية والنثر .. بين الجديد والقديم يعيد ترتيب فوضاه .. بدا اقتراح، هذا الجار الهادئ، أقرباً إلى مصالحة عميقة مع الحياة واقتراب خطر من اليومي والعادي والخاص .. في مواجهة مفاهيم العام والبطولي والجماعي .

في هذا الملف نحاول تقديم ريتسوس، مرة أخرى، ليس عبر دراسة أكاديمية أو عملية بحث ترصد تأثيراته على الشعرية العربية وتصنفها، بل في تقديم نصوصه من خلال أربعة شعراء عرب، من المغرب، تونس، العراق وفلسطين ... شعراء قرأوه وترجموه وحاوروه .

الترجمة المقصودة هنا، أيضاً، لا تأتي في سياق خيانة النص والشاعر بقدر ما هي رغبة في كتابة وإعادة «تأليفه» في صيغة ثانية وثالثة ورابعة ...، .

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.

(1) ميكس ثيودراكيس: «حراسة الزمن» – العدد الثاني – «الشعراء»، خريف 1998 .

يانيس ريتسوس:
الأُمّ تبقى مع منديل أسود!

ترجمة وتقديم: هاشم شفيق*

في مدينة بحرية، ذات صخور حادة، بحر لا يهدأ، وأشجار تتقاسم المنظر، هناك في مدينة «مونفاسيا»، ولد الشاعر اليوناني «يانيس ريتسوس»، كسليل آخر للأغارقة الغابرين، في يونان اصطخبت فيها العلوم والفنون والأشعار.
طفولة «ريتسوس» لم تكن يسيرة، بل كانت شاحبة وصعبة في عائلة تتكون من أربعة أطفال، كان «ريتسوس»، أصغرهم سناً.. عائلة تتناهشها الأمراض، كالسل أو الجنون، السل الذي أصاب أخته وأصابه هو، والجنون الذي ألمّ بالأم، والأب كان شبه معتوه، قضى أيامه الأخيرة في لعب القمار، بعد أن عاشوا في الماضي حياة رخية.
شعر «ريتسوس» المشبّع بأشياء الحياة وتفاصيلها.. شعره اليومي الأليف، المرهف، هو خزين للظلال والَضوء والحركة.. للنور الساقط على الأرض، لحركة البحر، لصيّاديه، لناسه وحركة الناس على الأرض، شعر يبدو في ظاهره يومياً، أليفا، وبسيطاً، بيد أنه من جهة ثانية، شديد العمق، متين البنيان، ضاربة جذوره في تراب الأسطورة الإغريقية.
لقد كان «ريتسوس» أهم شاعر في القرن العشرين، قصائده قرأها الملايين، حتى أن الملاعب ومدرّجاتها كانت لا تتسع لمحبي شعره، حين كان يدعى لإنشاده.

وفيما يلي مختارات من شعره:

أثينا(1)

في هذه الشوارع
الناس يهرولون
الناس يسرعون
يذهبون بعيداً
ينصرفون (من ماذا؟)
يصلون إلى (أين؟)
لا أعرف، بلا وجوه
مكانس كهربائية، أحذية وصناديق
إنهم يسرعون
في هذه الشوارع
كان ثمة زمن آخر
حين مرّوا بأعلام كبيرة
كان لديهم صوت،
أنا أتذكر، لقد سمعت ذلك.
كان صوتاً مسموعاً
الآن
إنهم يهرولون – يركضون
ثمة سكون في سرعتهم – القطار يجيء
إنهم يأكلون، يصطدمون بالمناكب
الضوء أخضر ثم أحمر
ومراقب القطارات هناك خلف زجاج الحاجز
البغي والجندي والقصّاب
بيد أن الجدار طويل
أعلى من الزمن
حيث حتى التماثيل

لا تستطيع أن ترى.

تقريباً

التقط بيديه أشياء ليست كثيرة
حجراً، قرميداً متكسراً،
المسمار الصدئ من الجدار المقابل.
الورقة تأتي عبر الشباك
القطراتُ المتساقطة
تأتي من إبريق الأزهار المسقية
والقشّ القليل يأتي من شعره
الذي سقّته الريح البارحة.
هو يأخذ كل هذه الأشياء
لينحت تقريباً في حديقته الخلفية شجرة.
الشعر يكمن في هذا تقريباً،
هل تستطيع أن تراه؟

عطلة أخرى

كل شيء كان رائقاً:
الغيمات في السماء
الطفل في المهد
النافذة المغسولة الزجاج
الكلماتُ في القصيدة
وثمة الورقة التي سقطت مشرقة في الخارج
والسماء التي بدت خلَلَ

سلسلة من الريش.

هبوب

مقابل النافذة
زهرات عبّاد شمس كبيرة
وعلى الشارع المتّسخ
ثمة غبار الخيولِ المارّة،
هي ما زالت واقفةً هنالك
تنتظر حزني.
الضوء ينعكس على وجهها..
ربما كان ضوء زهرات عبّاد الشمس.
بغتة اندفعت ذراعاها، ثم
راحت تطارد الريحَ
آنئذ نزعت قبعة القشّ
قابضة بها على صدرها
ثم انطلقت للداخل لتغلق النافذة.

ومضات(2)

عند المرآة
في الزاوية اليمنى
فوق الطاولة الصفراء
تركت مفاتيحي
خذها
الكريستال لم يفتح

مناظر طبيعية تتسارع عابرةً
زجاج نافذة القطار
في جيبي وجدت عوداً لتنظيف الأسنان
وزهرة جرسية لقبعتي

أزهار على بنطالك
الرياضي القصير
يدل على الحزامِ
ماذا أردت أن تسأل؟

تغطّت بملاءة
لَكَمْ تتنفس بيسر
(أهذا هو الشعر؟)
السفينة تقلع
الشراع ينتفخ
أجسّ بإصبع واحدة
ريحاً بعد ريح
هدأةً بعد هدأة

سأصبغ ظلّي بالأزرق
سأفرشي أسناني
ومن ثم سأعزف على القيثار
بينما أنت تختبئين تحت السرير
وسأتظاهر بأني لا أعرف.

ريح ثقيلة

ليل
الأضواء تومض في الميناء
بينما في ممشى دائرة الجمارك
منظّفة تكنس بهدوء
حقائبُ السفر مغلقة
وهناك شارةُ «ممنوع»
فقط الريح رفيقة
والأشرعة
الأشرعة الكبيرة

هذا الضوء الوحيد
على قمة الجبل
كان محمولاً هناك
من خلال شهيد
هل تتذكره؟

وهذا الرخام
جدّ عار
جدّ أبيض
لا ينتظر التمثال

كلّ شيء هو سرّ
ظلّ الحجر
مخلبُ الطائر

مكبُّ الخيوط
الكرسي والقصيدة

دوار البحر
ليس مرضاً
إنه جواب

كلُ ميدالياته الذهبية
تتدلّى على الحائط
وهو تحت الأرض
بسنّينِ ذهبيّتين.

إنه يمسك
يد الريح
بوسعهما الذهاب معاً لأي مكان،
لكنهما لم يفعلا
وبدلاً من ذلك
جلسا دون حراك أو كلام
يخفي أحدهما الآخر
الكلماتُ تذبلُ
مع السنوات
وكلمةُ «الأم»
تبقى
مع ابتسامة مستترة
ومنديل أسود

أجنحتك نمت بشكل كبير
من الأفضل تشذيبها عند الحلاق
فقط، لا تنظر في المرآة.
رحلت الطيور
الأوراق والنجوم
والآن
ما نوع الرحلة التي تستطيع أن تأخذها
في قطرة ماء؟

كشخص واثق من فقدان
الأمل توارى خلف ابتسامته
ثم وهب الأطفال الحلوى
والشيوخ بالونات

صوتُ عدو الخيول
يخترقُ الليل
فتحت النافذة
ثمة نجوم أبدية
إذا صفّرتُ
سوف تأتين.

---

* شاعر عراقي يقيم في لندن.

إشارات:
(1) قصيدة أثينا، 1970، اختيرت من مجموعته الشعرية «ممر وسلالم».
(2) مقاطع «ومضات» اختيرت من مجموعته الشعرية «قصاصات»، ومن آخر نتاجاته الشعرية المعنونة «تأخر في الليل»، وعنوان «ومضات» اختاره المترجم ليكون عنواناً جامعاً لهذه المقاطع.

الكلّ الشعري
تأملات في كتابات ريتسوس

صلاح بوسربف*

-I-

لم أقرأ «ريتسوس» بالاهتمام ذاته الذي قرأت عنه به غيره من الشعراء. أعني الشعراء غير العرب. فقراءاتي كانت نوعاً من الإنصات للبعد الجمالي أو الشعري في النصّ. بعض نصوص «ريتسوس» المترجمة إلى العربية لم تجعلني أحسّ بتوفر هذا الشرط، كما أن بعض ما ترجم له كان يتجه، بالأساس، إلى «الفعل المباشر» في النص، ولا يعبأ بما فيه من ثراء وعمق شعريين.

فالترجمة غالباً ما كانت تؤثر المحتوى السياسي المباشر على المستويات الشعرية المختلفة، التي عادةً ما يعمل النص على إخفائها أو إرجاعها، بالأحرى.

لهذا السبب، ولغيره من الأسباب الأخرى المثبتة بطبيعة المرحلة التي (قُرِئ)، فيها شعر «ريتسوس»، اتجهت القراءة العربية لبعض أعماله نحو الفعل السياسي المباشر، دوَن أن تنتبه إلى ما يسميه «ريتسوس» نفسه «الفعل الجمالي».

-II-

أتاحت لي قراءة رسالة «ريتسوس» التي كتبها إلى زوجته في 15 أيار 1972، العودة إلى قراءة شعره. فـ«ريتسوس» في تصوره للشعر، وهذا ما سينعكس على الممارسة النصية لديه، لم يكن معنياً بـِ«الفعل المباشر» كشرط لتحقق شعرية النص.

فهو كان يدرك أن «الشعر لا يدون فقط عبر الأفكار»، وهو ما سيدفعه إلى طرح أحد الأسئلة الأكثر وعياً بضرورة توفر الشرط الشعري في النص، باعتباره الحد الذي يتيح احتمالات محايثة الشعري

لـ«الفكري».
فالارتباك، الذي يحدث للقارئ، ناتج عن وجود ارتباك أو التباس في طبيعة العلاقة التي تربط بين هذين المستويين. يقول «ريتسوس» في إحدى فقرات الرسالة:
«من هنا تبدأ إشكالية عدم الفهم، والتقديرات المبدئية، والارتباك. إذاً، أين يختتم الالتزام حدوده لتبدأ حدود الشعر؟ الناس تعترف وتوافق ببساطة داخل الشعر على الأفكار التي تروقهم، ولكنهم لا يقتربون من الشعر إلا بصعوبة.»
في القراءات التي قاربت أعمال «ريتسوس»، ظل الشعري مؤجلاً أو محفوفاً بصعوبة الاقتراب من مقترحاته الجمالية.
لم تكن الأفكار عنصر قوة في النص، أو أحد العناصر المحايثة للمقترحات الجمالية المنبثقة منه كبناء كلي، بل أصبحت عائقاً يحجب النص بكامله، ويختزله في ما هو آني. فالشعر هو دائماً، كما يرى «ريتسوس»، إضافة إلى ما هو اجتماعي، ذهاب نحو «المجهول». فهو «يحتوي ويدل على ما لا يفسر في العالم، كل المجهول في العالم»، وهذا ما يجعل من الشاعر يتجاوز الآني إلى «اللحظة الأزلية».

-III-

الأزلي إذاً، هو ما يحمي النص من التوقف، وينجو من الآلية الوظيفية التي تطبع، عادةً، النصوص التي تشرط وجودها بحدث ما.
لدى «ريتسوس»، هناك حدث أو أحداث بالأحرى، لكن الحدث، رغم حضوره الأوضح، «لا يعرقل أو يقوض» الجمال. ثمة علاقة جدلية تتحقق في شَرْطيّ المحايثة والتجاوب بين هذين المستويين المبنيين للنص. فالحدث، بما هو آني، يتحول إلى صيرورة تتجه صوب المستقبل. أي صوب الأزلي.
في هذا يكمن سرّ احتفاء «ريتسوس» بالعناصر المتحركة والمتموجة في كتابته. ثمة أشياء في حالة انبثاق وولادة دائمين، والتقابلات الضدية ليست سوى أحد وجوه هذا الانبثاق. فاليومي، الذي شغف به «ريتسوس»، لم يكن مجرد التقاط لتفاصيل صغيرة عابرة ومبتذلة، إنه تعبير قوي عن حياة، اليومي فيها هو «شرط الحياة»، أي «ما يدل على قيمة الحياة»، وهو ما يعني وجود نبض وحركة دائمين.
النصوص القصيرة التي طبعت حيزاً كبيراً من تجربة الكتابة لدى «ريتسوس»، خصوصاً في قصائده الأخيرة، كانت أحد التعبيرات التي أمحى فيها الفرق بين الفكري والشعري، وصارا معاً عنصر بناء متداخلاً ومتشابكاً يصعب معه، رغم ما قد يبدو في النص من بساطة، أن نعزل كل عنصر على حدة. فالبساطة في هذه النصوص تخفي المركب والعميق، وترقى بالنص إلى مستوى من التكثيف يصعب معه فك الارتباط بين مكوناته المختلفة.

-IV-

لهذا الالتقاط الخاطف للعناصر والأشياء ما يبرره في كتابة «ريتسوس».
بالعودة إلى سيرة ريتسوس، إلى معرفته، نعثر على ما دفع الشاعر إلى هذا الاختيار. فالعين عنده

كانت قلقة ويقظة، دائمة الحركة والانتباه. وهذا يعود إلى اشتغاله بالرسم وباللون. ففي «حجارة ريتسوس»، تبدو هذه الرسومات، بتلويناتها وتقاطعات أشكالها وأحجامها، شكلاً أو صيغة من صيغ التعبير عن هذا العرضي في حياتنا الذي يخفي وراء عرضيته جوهر الحياة. فما لا يبدو لنا حاملاً لقيمة ما، أو بلا معنى بالأحرى، هو لدى «ريتسوس»، «مفردة» دالة تحتاج، فقط، إلى يد أو عين تدرك الرائع والمذهل في هذا المفرد عندما يتخذ وضعاً ضمن سياق أو شكل تعبيري ما.

«فمن الحجارة التي تدوسها أقدامنا (يقول أراغون) يضع «ريتسوس» روائع مذهلة». أليس هو نفس ما يفعله «ريتسوس» مع الكلمات. أعفي مع الأشياء البسيطة والمبتذلة حين يعيد ترتيبها ووضعها في أمكنة غير متوقعة؟

إن اليومي، في مثل هذا الوضع المفاجئ والمباغت، يتحول في سياق النص إلى مجاز، وهو ما يتيح تعدد دلالات النص، وانفتاحها على المحتمل واللانهائي، أي تحولها إلى ثراء دلالي لا حد له.

-V-

الميثولوجيا هي أحد أطياف تجربة «ريتسوس» الأساسية، فهي لا تأتي كتحميل للجملة أو النص بقيمة زائدة. إنها ذات وجود دال في النص، وقد كان «ريتسوس»، حين يلتجئ إلى بعض الأشكال التعبيرية، يسعى من وراء فعله هذا، إلى إنقاذ النص من تلك الآنية المميتة التي تتحول إلى خطر يهدد النص، ويحد من مداه.

فهو يرى أن بعض قصائده، إذا كانت قد نجت من هذا الخطر، أو «أُنقذت من الضياع»، فذلك يعود إلى الحضور الأسطوري فيها... كما أن الحدث فيها يتحدد «تسلسلياً وجمَالياً عبر زمن تاريخي غير محدد، أسطوري وداخلي باتجاه الما قبل والما بعد».

إذاً، الميثولوجيا، هي تأكيد على الجمالي، وعلى طاقة النص وصيرورته، وليست مجرد «جمالية مصطنعة». وهو ما كان ريتسوس يرفضه.

المتأمل في الكتابات التي كانت فيها الأسطورة حاضرة، باعتبارها عنصر بناء في النص، سيدرك أن الأسطورة ستخرج من سياقها التاريخي أو المعرفي الذي كانت تتسم به، إلى سياق شعري مرتبط بالنص، وباقتراحاته الجمالية والدلالية. إنها تتحول إلى تسمية، أي أنها تصبح رمزاً من ابتداع النص رغم ما يظل عالقاً بها من إيحاءات وظلال سابقة.

إن «ريتسوس»، كان باقتراحاته هذه، ووفق البرنامج الشعري الذي عمل على تنفيذه في كتاباته، يسعى إلى كتابة أسطورته هو. أعني، خلق انفراجات شعرية جديدة يتحول معها الواقع إلى أسطورة، أي إلى توجه صوب «الدائم» و«الأبدي»، وهذه إحدى أهم نقط القوة في تجربة هذا الشاعر، لأنه نجا بكتابته من الحضور الضامر للأسطورة.

فإذا كانت الأسطورة تمثل نوعاً من التفكير الجمعي، أو تحمل رموزاً جماعية مشتركة، فإن الوضع سيختلف عن «ريتسوس»، حيث الأسطوري سيتحول إلى ميل معلن، إلى التوظيف الشخصي أو الفردي الذي تعلن فيه الذات وجودها الأسطوري . هذا الوجود الذي يمتص صميم الأسطورة. ويضمن سلامة

هذا الصميم حيث يهبه حياة جديدة، ونبضاً أكثر حيوية، وأكثر قدرة على اختراق زمنه، وما سيلي من أزمنة أخرى، «باتجاه الما قبل والما بعد»، كما يقول «ريتسوس» نفسه.

-VI-

النص الشعري عند «ريتسوس» هو نص مفتوح على كل الاحتمالات، وليس نصاً مغلقاً. فرغم الوضع المأساوي الذي عاشه الشاعر، وما حل به من نكبات، وما عاناه من مرض واعتقال ونفي و(يتم)، أيضاً، فإنه استطاع تمثل هذا الوضع والتعبير عنه شعرياً دون أن يترك الواقع يطفو كبعد واحد للنص، أو كدلالة حصرية ذات مرجع تاريخي محدد. ثمة نصوص رضخت لهذا النوع من الإكراه، لكن انشغال الشاعر بتطوير تجربته، وتشذيب لغته، واعتنائه بالشعري أو بالجمالي، جعله، في انتقاله إلى تجربة النصوص القصيرة (الخاطفة) يحرص أكثر على وضع النص في «حجم الهول» الذي رآه وعاشه. فبلمسة واحدة، مثلما في الرسم، يتقد النص، وتشتعل دلالات لتصير في وضع المحتمل واللانهائي:

نموذج 1:

كان ظل الشجرة يغطي بالكامل

تمثال المرأة العارية

فقطعت الشجرة.

نموذج 2:

حين أرقد أصغي لهم

وهم يحملون الأشجار المقطوعة

على المراكب، والنهر ينساب.

نموذج 3:

هؤلاء

الذين يحدقون في الحافات

دائمو الريبة

أيديهم ضمت في جيوبهم

لديهم الكثير مما يقولونه
لكنهم يلوذون بالصمت
السماء تمتد نحو دواخلهم
لذلك، أحياناً، تحت القمر
تجدهم وحيدين، يبتسمون أمام باب موصد.

نموذج 4:

بلغ به الإرهاق مداه
لكنه يصرّ أن يتكئ
على كتف زهرة.

---

* شاعر وناقد مغربي يقيم في الدار البيضاء.

تنبيه:
1- الجمل التي تحتها خط من وضعنا. وهي تشير إلى تلك اللمسات الخاطفة التي تحول مجرى النص، وتفتح انفراجات في أفق شعريته، كما تتيح لدلالاته أن تتدفق وتصير في وضع المحتمل واللانهائي.
2- الاستشهادات المقترحة في هذه التأملات مأخوذة من:
أ- «الصيف الأخير»، دراسة في أعمال «يانيس ريتسوس» الابداعية، جمال حيدر، المركز الثقافي العربي1997.
ب- مجلة الكرمل، «يانيس ريتسوس، مذاق النهاية هو بداية القصيدة»، حوار مع الشاعر، العدد 7-1983.

من أشعار يانيس ريتسوس(1)

ترجمة: محمد علي اليوسفي*

وقائع يومية

قالت له: «خذ المفتاح معك وعندما تعود – لا
يهمّ متى. افتح وادخلْ. سوف تجدني هنا». مرّت أعوام
بكاملها
أول ما التقاه في مرآة الخزانة. قُبالة الباب،
كان هو نفسه، ولم يشخ كثيراً، في سترته الرمادية،
هنا أيضاً، كان هو نفسه الذي ينتظره! وهناك، على
الجدار، تُثبت بمسمار، قطعة من الورق «انتظرني.
لن أتأخر عند بائع الفواكه». تناول قُبعته؛ ودسّ الورقة في جيبه
ثم ارتحل.
ظلّ المسمار في الجدار لامعاً مثل حشرة،
ثابتاً في حياة هي حياته بالتأكيد، ذات ظهيرة من ذهب
وصيف.

ثانية

سيجارة مشتعلة
فتاة على الشاطئ
حجارة سقطت في الماء
لم تكد تقول: حياة.

بيت

مذاق عميق للنهاية يسبق القصيدة، بداية
سُلّم أَحاسيس
وَردية، برتقالية توارت الشمسُ. البحر
أزرق – أخضر داكن. وفي البعيد، مركب –
نقطة سوداء تنوس. أحدهم
وقف، وصرخ: «مركب! مركب!»
الآخرون، في المقهى، غادروا كراسيهم، ونظروا.
إنه مركب حقاً. ورغم ذلك فإن الشخص الذي صرخ،
كما لو أنه مذنبٌ الآن تحت نظرة الآخرين الساخطة،
طأطأ رأسه وقال بصوت خفيض: «لقد كذبت عليكم».

تصويب

كان آخر وَمْضٍ في المساء يُضيء له
الصفحة البيضاء التي يتهيأ ليكتب عليها شيئاً ما عن البحر
وعن البيوت المغلقة. لكنه خاف أن تُطفأ إحدى كلماته

على الصفحة
ذلك الوَمْض الورديّ الذهبيّ للغروب
أغلق دفتره إذاً، معتقداً
أنه بتلك الطريقة يحافظ تماماً على ذلك
الصمت الورديّ الكامل. وفي الغد،
نظر إلى الصفحة. كانت بيضاء،
ذات بياض لا يصدّق مثل مسطّح،
يكشف ضعفه الشخصي تماماً، لذلك
وبحركةٍ كما لو أنه يُخفي بها عينيه،
كتب بسرعة هذه الكلمات:
«الصمت ليس وردياً، إنه أبيض».
وكان قد بدأ يدرك البياض كله وراء الصفحة
مثل تمثالٍ عارٍ خلف ستار شفاف.

ليلة

طيلة أعوام، ظل القصر الريفي الصغير مهملاً؛
كان يتهدّم قليلاً قليلاً،
القضبان، الأقفال، الشرفات
وذات ليلة،
أُضيء الطابق الثاني كله فجأة، نوافذه الثماني، باباه
المتشابكان المشرّعان بلا ستائر.
توقف المارة القليلون،
رفعوا رؤوسهم.
صَمْت،

لا نأَمة
مربّع فارغ مضاء
وحدها على أحد الجدران
مرآة عتيقة مائلة،
إطارها من خشب أسود منقوش،
تعكس حتى عمقٍ عجيب
ألواحَ الأرضيّةِ المنخورة المقعّرة.

المجنون

العربة متوقفة قبال البحر،
محمّلة بستة براميل حديدية حمراء
وبرميل آخر ذي لون أخضر مفاجئ. الحصان
يرعى في المرج، وسائق العربة
يسكر في الحانة. توقّف مجنون الجزيرة
فوق مكسر الأمواج وصاح:
«بذلك الأخضر، هناك، سوف أهزمكم»
وأشار إلى البرميل السابع
من دون أن يعرف حتى
ماذا هو ومن صاحبه.

عائق

مطر ناعم على السطوح الريفية
بيت مغلق، رجل يتعرّى في الداخل.

يمكن سماع صرير السرير. سقوط الحذاء.
صحن ينكسر في المطبخ.
فيما بعد مرّت ظلال القطار على الدفلى المغبّرة.
كأنّها تغلق باباً، خفية، حتى لا نتمكن من رؤية الستائر في الرواق.
في الغرفة الأخرى. العزلة مع كتابها الكبير، وكلّ الأضواء مركزة
في نصف كوب من الماء.
كان أحدهم يحاول أن يثقب المرآة بإصبعه.
توقف المطر الناعم.
أخرجوا آلات التصوير الشمسي على الشاطئ.
صور سريعة، ذكريات، سأم،
وذلك العناد للتوصل إلى ثقب المرآة،
للنظر من الجهة الأخرى، حتى لا يمنعك
انعكاسك من الرؤية.

مواجهة شريفة

تناقشا طوال الليل، تنازعا، أمعنا في الشجار، حاولا بصراحة
وانفعال إلى أن يجدا حلاً، انفصالاً ما، تبادلا الإهانات، وتأسفا – برعونة – على الوقت الضائع،
وفي النهاية تعريّا من ثيابهما ومكثا، هكذا
رائعين عاريين، مُذلّين، وجريحين.
كان النهار يطلع
انطلق من السطح المقابل رفّ طيور
مثل لاعب ورق يكشف أوراقه الرابحة غشّاً.
هكذا، بلا براهين، بلا مبررات، بلا ضمانات،
طلع النهار من وراء التلال مع غطرسة الفعل القاسية.

شكل الغياب

(مقاطع)

I

كلّ ما ارتحل اتّخذ جذوراً هنا، في المكان ذاته، حزيناً أخرس
مثل الأصيص الكبير في البيت والذي توجّب بيعه مجدداً في
ساعة عصيبة،
وفي زاوية الغرفة التي كان يوجد فيها
ظلّ الفراغ مكثفاً بالشكل ذاته، غير قابل للعزل،
تتآلف شفافيته في انعكاس النور عندما، من وقت لآخر، تنفتح
النوافذ
وفي ذلك الأصيص الذي غيّر جوهره بجوهر مماثل
مساوٍ، بزجاج الفراغ.
ويستمر التجويف ذاته، لكن رنينه أكثر ألماً.
وفي الخلف. يبدو لون الدار أدكن مما كان، أعمق
ووهمياً أكثر.
كما لو ظلّ الأصيص ينتشر على تابوت حجري.
أحياناً، أثناء الليل، في ساعة هادئة.
أو خلال النهار، أثناء تداول الحديث
يسمع المرء في أعماق ذاته رنيناً حادّاً، مرّاً، ومتذبذباً.
كما لو كانت إصبع لا مرئية تلامس
ذلك الإناء الغائب، المحسوس، الشفاف.

II

الأطفال الموتى لا يغادرون بيوتهم أبداً،

فيها يتنقلون ويتمسّكون بأذيال أمّهم عندما تكون منصرفة إلى
إعداد الطعام مستمعة إلى غليان الماء كما لو أنها تدرس
قوانين البخار والزمن، دائماً هناك،
ويكتسب البيت عمقاً مختلفاً
كما لو أنّ مطراً صامتاً أخذ يهطل
في عزّ الصيف، على الحقول المقفرة.
الأطفال الموتى لا يرتحلون، يظلّون في البيت.
يتميّزون بتفضيل اللّعب في الرواق المسدود.
وفي كلّ يوم يكبرون في قلوبنا إلى حدّ أنّ الألم في صدورنا لا يتأتى
من قلّة، بل من فرط حضورهم.
وإذا حدث أن أطلقت النساء صرخة في نومهنّ، فإن ذلك يعني
أنهنّ يشعرن مجدّداً بآلام الولادة.

III

أحياناً ذات مساء ربيعي، ينهض طفل ويرتحل من دون مبرّر.
ومن دون أن يوبّخه أحد، ينهض ببطء دون تنبيه، من المكان الذي
كان يجلس فيه وديعاً على الأرض فيحتفظ لك المكان بحرارته.
وتستمرّ هيأته متذبذبة في الهواء النقيّ مشكّلة طفلاً آخر أبيض
التوهّج.
وحوله، تأتي خرفان صغيرة، وكأنها تتجمّع حول نار بيضاء
طلباً للدفء وأبعد قليلاً،
حصان أبيض كبير، متوحّد،
متألق تحت ضوء النجوم،
يسكب دموعاً غزيرة براقة، ورأسه منتصب تماماً.

-IV-

في أغلب الأحيان، عندما يأتي المساء ويكون الجميع غائبين عن
البيت.
تضع الأمهات صدارهنّ على مسند الكرسيّ
ويفتحن خزانة الابن الميت
كما لو كنّ يفتحنّ باب صدمة الصمت الذي يفتح على حديقة
المرارة.
ويتناولن من المشاجب تلك الثياب الصغيرة الزرقاء.
الوردية، البرتقالية، المفصّلة.
في أكثر ساعات الغروب تأملاً، ينفضن عنها الغبار، يلامسنها
وكأنهنّ غائبات، وفجأة يبتسمن، كان لابنتهنّ أن تكون اليوم كبيرة.
ينبغي اقتناء ثياب جديدة لها.

-V-

الفرشاة المنسية فوق الأرضية الخشبية سفينة صغيرة.
تبحر بمحاذاة الشاطئ، وأنوارها مطفأة،
عشيات الصيف، ساعة إغلاق الحدائق العامة، عندما تعود البنيّات
إلى البيت برفقة المربّية، وأخواتهن الأصغر قد نمن في عرباتهن.
تسير وراءهن في صف صامت، لا مرئي، البنيات الصغيرات الميتات.
شاحبات معفرات الشعر، يحملن بين أيديهن المضمومة باقاتهنّ
الذاوية مثل قصائد قصيرة لم يسعفهنّ الوقت ليحفظنها عن
ظهر قلب.
يمكثن بعيدات، ينظرن إلى الزخارف والألعاب المعلقة في
الأكشاك، والواجهة البسيطة المضاءة في دكان البزاز المجاور.
يتركن مع كل خطوة حيزاً حميماً سرعان ما يغطيه ظلّ بنفسجي

ووردي، يصلن إلى عتبة بيتهن، ويتفحصن ملياً نافذة حجرة
طفولتهن، يرفعن يداً، للحظة، لكنّهن لا يطرقن.
وفي الداخل يسمع الوالدان صوت الطرقة، يتركان منديلهما
يسقط على المائدة،
مثل ورقة كبيرة ميتة تسقط على الزمن.
يفتحان الباب،
لا أحد ولا يريان
سوى النجوم الذابلة والسّماء الفارغة والكون الفارغ،
فيغلقان الباب من جديد وكأنهما يعودان إلى أطفالهما.

VI

تعمّقت الحجرات مغلقة في ظلمتها الهائلة، وها هي ذي قيد
الانتظار أو التأهّب.
المكان الذي ظلّ شاغراً يشير إلى الغبار
كما نقص الهواء يذكر بالهواء، فيتسلل المنخران مثل خطم كلب
يتشمم آثار سيدة في غابة معتمة، على دروب ظليلة، وعرة
كأنّما هو توقف في الديمومة، عندما تسمح الموسيقى المتوقفة
بالتعرف على ما سبق، والتنبؤ بما سوف يلي، عندما الأقواس
المعلّقة، فوق أوتار المكان تماماً، تدرس توليفة الصمت التي
ستعزفها في اللحظة التالية.

VII

في الربيع يغطس كلّ شيء مجدداً في ماء أزرق،
ويُنظف زجاج النوافذ حتى في بيوت الحداد.
تظل المكنسة في زاويتها، أكثر تعالماً ووقاراً

عادت سنونوّتان إلى سطحنا،
زورقان من ورق رمتهما البنية الميتة
من العالم الآخر
كي يلقيا المرساة في مرساهما التّبْنِيٍّ الصغير.
وها، إن ابتسامة عميقة تعود إلى شفتي الأمّ
ابتسامة مرتجفة مثل ذراع ميزان فوق الزمن.
كأنما هي تحمل، مع الطفل الذي ننتظر ولادته
ذاك الذي فقدته.

VIII

مباركة هي البيوت التي مات فيها أطفال صغار
الظلال المتحجرة تتكاثر في الأروقة.
كأس منسية على المائدة شُربت حتى الثمالة
منديل معلق على مسمار، تحية بعيدة
بيننا وبينه، حفظ المسافة على بعدها،
في المساء،
عندما تنطفئ كلّ الأضواء
النقطة الحمراء لسيجارة في ظلام المرآة،
هي النار المتوحّدة التي أوقدها الأطفال الموتى
في ذكرى القديس يوحنا، بعيداً،
في السهل،
وحتى تقدّم
صرصور على الصّحيفة الملقاة أرضاً، هو
تقدّم عربة ضئيلة الحجم تخترق الموكب،
حاملة رسالة رسمية مختومة.

IX

يعيش الغياب إذاً، معنا أو بمفرده، حياته الخاصة، يلّوح بحركات غير
مرئية، يسكت، يتقهقر، يهزم مثل وجود حقيقي، مع تلك
الابتسامة الخرساء التي، قليلاً قليلاً تغضّن
الفم والعيون، وجودٌ نضبطه ساعات زمننا، يفقد ألوانه
ويفاقم ظلّه –
يعيش ويهزم معنا، يتلاشى معنا ويبقى في ما تخلّفه.
وعلينا أن نراقب كلّ حركة من حركاتنا، كلّ فكرة من أفكارنا، كلّ
كلمة،
لأنّنا وحدنا الآن نتحمل مسؤولية ما سوف
يكون عليه كلّ ما هو غائب.

X

البنيّات الميتات لا يتغيّرن مطلقاً. نعرف قسماتهنّ النبيلة،
نتابع
تحولاتهن الطبيعية، لا بتأثير الموت، بل بتأثير الزمن فحسب.
بينما هنّ في ذلك البستان الآخر، وراء السياج أفواههنّ
أكثر صمتاً مما في السابق، وفي عيونهن ظلال وقورة لفكرة مبكّرة
تعرقل انعكاس الصور والنّجوم. نحن
نعرف
فهنّ لسن مشغولات البال بزوج مقبل، بشؤون المطبخ، وبترتيب
الفراش ورفض السماح في حفلة الرقص الأولى،
– ولو برقصة واحدة – للضابط الجميل، المزخرف الثياب الذي
اقترب منهنّ، لقد رفضن
حتى تجمدت الأزرار الذهبية في بدلته، أما هنّ

فوحيدات، عذراوات، محصنات
سوف يبقين وفيّات لنا حتى النهاية، وعندما نهرم ويخف بصرنا
سوف يكنّ حاضرات كي يمسكن بذارعنا، فنذهب نتنزه معاً
مؤتمنين صامتين، فخورين.
بفخر وصمت مختلفين، إذ لا نميّز في دواخلنا
ألوان الغروب وعطور الحدائق إلاّ عبر وقع خطواتهنّ.

XI

فوجئت بنية غير حذرة بليلة كآبة،
ما الحياة يا ترى؟ وهذا الألم؟ وهذه الصرخة؟ هل كان كل ذلك
ملكها حقاً؟ أكان يتربص خلف ضحكتها مثل احتياطي خؤون؟
وتلك الوجوه الحبيبة التي كانت تنحني عليها ما أسرع ابتعادها
ها إنها بهدوء تفتح باب نجمة، وتدخل إليها بحذر حتى لا نتمكن
من السماع.
وفي كلّ ليلة يخفق ذلك الباب المفتوح على أنفاس نحيبه الواهن.
لم تعد قادرة على القيام كي تعيد إغلاقه،
وحتى نحن لم نعد نستطيع (إنّه بعيد جداً) إغلاقه من جديد.

XII

هذه الغرفة صارت بئراً عميقة
المصباح نجمة مسمّرة في الماء
سرير الطفولة في مكانه، المُلاءات ترسل أحياناً
انعكاسات دائرية
بينما على وجه السماط
تسقط الساعات البطيئة، بلا وزن، مثل قذى التبن

راسمة دوائر لا مرئية، وفي الداخل
لا أحد يتكلم، وحتى إذا تكلّم لن يُسمع
وعندما تنقلب كأس تهوي بلا ضجة في راحة يد
الصمت، ولا تتهشم،
وحدها صرع، الفراق القديمة، ذائبة في الماء، تجعل البئر
أشدّ عتمة وأكثر عمقاً.

XIII

الليل – ظلام دائم لا يتغير –
يعيق الفم والعينين، الذراع
لا تتمكن من الامتداد، والقدم لا تستطيع التحرك، كل شيء
مجبول من سواد كثيف، وحده صليب صغير
من مرمر، وعليه اسمك،
يلمع في الليل .. جذع مبيّض لشجرة مقطوعة
حيث يصعد نسغ الذاكرة اللّبني،
محركاً كأغصان ليّنة،
حروف اسمك.

XIV

النهار يغيب، ولكن، كيف لنهار ثابت أن يغيب؟ النجوم قوارير، الليلة الماضية وحُقنها الفارغة مرمية في فوضى مؤلمة على بلاط المستشفى، تلك العلامة الزرقاء هي قرارة الهاوية، ومن الداخل تسمع، طوال الليل، صرخة أحدهم: النجدة، غير أن الجميع مضوا في أسرتهم، موتى يسمعون النداء ولا يستطيعون الركض، لا يستطيعون الاندفاع إلى الهاوية كي يكفوا عن السماع، هذه

الصرخة هي صرخة طفلهم الميت، ولا يستطيعون الخذلان.
ينبغي أن يستمعوا إليها وألا يموتوا، محافظين بموتهم اليومي
على نظرة طفلهم.
وتغدو كلّ حركاتهم وأفعالهم مقدّسة
وكأنّما ذلك لكي لا يحزنوا أو يكدّروا تلك النظرة اللازوردية.

XV

وحتى إذا لم تقل أمك شيئاً، فهي تدرك جيداً أن كل شيء قد
تحدب نهائياً ولن يعود أبداً إلى الهيأة المستقيمة والبريئة للحياة
مساء السبت عندما تنحني على مائدة المطبخ، تشعر أنها
تنحني فوق الفراغ، لكنها تصر على حساب مصاريف الأسبوع،
وعلى إعادة عملية الجمع الزهيدة
وهي منكبّة خشية أن يحزر الآخرون، انكباباً مؤلماً يجعل الجميع
يشيخون بنظرهم كي يتفادوها، كومة البرتقال، تلك التي كانت
مخصصة للطفل ولم يلمسها أحد،
هي تلّة صغيرة مذهبة في غروب مجهول
وعلى قممها يخفق صامتاً، لا مرئياً، علم صغير منكّس.

XVI

تكبر الظلال باكراً في البيت قبل أن ينطفئ النهار،
قبل أن تنطفئ أصوات الأطفال الآخرين
تنمو أظافر الرجال ولحاهم بسرعة أكثر، الصابون لا يرغو، النار لا
تدفئ، وعلى فساتين النساء
صارت الطيات أعمق وأدكن كما لو كانت فيها ذكريات خرساء
ذاوية.

لكن ذلك لا يمنع النساء من إعداد المائدة، مع قدوم المساء،
والطعام، دائماً، وفير،
صوت الخبز الممضوغ في الفم،
هو الصمت الجريح الذي يتقلّب متنهداً في الجهة الأخرى.

XVII

وطيلة ساعات يخيّم هدوء عميق، غريب، في الحجرات، كما لو
كانت المرساة الكبرى ترتفع من الأعماق متألقة، وتظلّ حدود
الـ«هنا» والـ«هناك» بلا حراس.
أما أنتِ فلم ترحلي، نحن وحدنا الذين اجتزنا الحدود، شاعرين
خلفنا، من دون أن نلتفت، بخطانا الهادئة، بينما إلى الأمام، وفي
ضياء موحش، تمتدّ الضفة الشاسعة العارية،
وعلى الرمل الناعم، المبلل، ترتسم آلاف الصلبان
الصغيرة من سيقان الطيور البحرية
التي مشت هنا، وانتقلت، من دون أن تطير، إلى البعيد.

XVIII

ومنذ ذلك الحين مرّ وقت طويل وبليت أزواج أحذية عديدة
على حجارة المشاهد المجهولة، ومع ذلك، وللمرّة الثانية، لم تثمر
الأشجار، وفي الغياب
حصل الزمن على ديمومة أخرى، فصول عديدة تتداخل من رصيف
إلى آخر. وهي تحصى الآن باستراحات الموت الكبرى.
والموتى يكبرون ببطء، ببطء شديد، هم أيضاً لا يستطيعون التوقف،
ألعابك وقعت من تلقاء نفسها وارتحلت إلى السماء.
كرسي الطفولة الصغير صار كوكبة أنوار هندسية كي تنقله مجدداً من الغرفة إلى الباحة.

وتلك القرون مرت في حياتنا وتجوفت الحياة حتى أمست كلّ حركة للأمّ
عندما ترفع المائدة، عندما تعد الفراش أو تصمت وهي ترتق
جذورنا، تترافق بظلّ شاسع عجيب، ينتشر على قباب هائلة وكأنما
الإنارة منعكسة، فيضاء كل شيء من الأسفل إلى الأعلى ومن
الداخل نحو الخارج.

---

* ناقد تونسي يقيم في تونس العاصمة.

(1) ولد يانيس ريتسوس سنة 1909 من عائلة غنية سرعان ما عرفت مصيراً مأساوياً وإفلاساً، إذ مات أخوه ثم ماتت أمه بالسل ومن ثم أبوه، ثم جُنّت إحدى أخواته.
وأصيب يانيس ريتسوس بالسل، هو الآخر في سن السابعة عشرة، الأمر الذي ترك بصماته عليه وعلى شعره.
قضى مرحلة المراهقة والشباب بين المصح والأعمال الشاقة طلباً للعيش، ما جعله يقترب من المثال الثوري في كتابه الأول، ومنها «تراكتورات» 1934، و«أهرامات» 1935.
شارك في المقاومة اليونانية وعانى من السجن والمنفى، ثم سرعان ما لمع نجمه الشعري ونال عدة جوائز محلية وعالمية.
من أعماله الشعرية الأخرى «أحياء العالم» 1951، «سوناتا تحت ضوء القمر» 1956، «شكل الغياب» 1958، «خريسوثيميس» 1967–1970، «فيدرا» 1975–1974 الخ..
توفي سنة 1990.

أحجار يانيس ريتسوس

خالد درويش*

كانت اليونان بعيدة وغامضة، وحين التقيت «إيفانغليا» وعرّفتني على «بنايوتيس»، الذي دلّني على شمس اليونان وأحجارها وبحرها وتحولاتها، ودلّني على أشعار ريتسوس، صارت اليونان قريبة وأليفة، جميلة ومثيرة.
«إيفانغليا» – «فاغليو» كما يناديها من يعرفها اختصاراً– جاءت من مدينة سالونيك بشمال اليونان إلى «صوفيا» لتدرس التاريخ، وكنت قادماً من دمشق. وفي الطريق القصير بين المسكن الجامعي ومعهد جمال عبد الناصر لتعليم الطلبة الأجانب اللغة البلغارية، كنت ألتقيها مرة في اليوم. ومراراً، حين أتقصّد ذلك. تحية في الصباح أو تحية في المساء وابتسامات خجولة وبعض من الكلمات المتلعثمة بلغة جديدة على كلينا، وهذا كل شيء، كل ما كان يجمع بيننا.
فجر يومٍ في الخريف، أقلّنا القطار في رحلة للطلبة الأجانب من صوفيا إلى مدينة «فارنا» على شاطئ البحر الأسود.
حشد من الشباب من جنسيات مختلفة كان موزعاً على عربات القطار الذي يشق طريقه بين الجبال إلى البحر: ألحان حبّيار من البرتغال وأغاني الكوبيين، سخرية البولنديات وقهقهات الأفارقة، صوت ارتطام الزجاجات الفارغة بالصخور على جانبي الطريق، وتراتيل كنسية لصبية من «براتيسلافا» في المقصورة المجاورة.. وكانت رائحة غابات الصنوبر تتدفق عبر النوافذ، وتنتشر في أرجاء هذا الصَخَب الرائع. هل كان رائعاً حقاً، أم أن وجود «فاغليو» في مقصورتي، قبالتي تماماً، هو الذي كان يبعث فيّ الحبور إزاء كل شيء؟

من حين لآخر، كنت أغادر المقصورة إلى الممرّ، أتكئ على النافذة، أدخن وأتأمل الجبال والأنهار والغابات وبيوت القرى التي يعبرها القطار، ثم يطوّح بها بعيداً وراءه، ويُتابع مسيره الحثيث إلى البحر، ومن حين لآخر كانت تأتي «فاغليو» إليّ، إلى النافذة، فنحاول حديثاً صعباً وممتعاً عن الناس والشعر والبلاد. كم كان يصعب عليّ حين تعود، بعد صمت يطول بيننا، إلى مقعدها وتتركني وحيداً، تائهاً عند أول الفراغ الممتد من النافذة إلى نهايات الأفق.. وكنت أفرح لعودتها كفرح عاشق بموعده الأول.

وصلنا «فارنا» بعد رحلة استغرقت أكثر من تسع ساعات مضت سريعاً سريعاً.

في اليوم التالي، عند العصر، وقفت على شرفة غرفتي وحيداً، حائراً، محدقاً في رغبتي في أن أكون معها، الرغبة التي بدأت تتسع منذ الصباح لتطفئ كل شيء سواها؛ فالبحر الممتد وراء الغابة الصغيرة رماديّ، والشوارع بلهاء، السماء من رصاص والماء حامض.. وفجأة، ظهرت «فاغليو» وحيدة كشجرة في الطريق إلى الصحراء، رأتني، لوّحت لي:

– سلاماً!

– سلاماً، إلى أين؟

– إلى البحر.

– رائع!

– تعال معي، هيّا!

– انتظريني!

عبرنا دروباً مرتجلة وضيّقة في الغابة الصغيرة إلى الشاطئ، بقيت صامتاً كي لا يفسد الكلام هذا المسير. حيناً كنتُ أسبقها، وحيناً تسبقني، وحين كانت تفسح شجيرات العلّيق متّسعاً، كنا نسير معاً. على حافة كاسر الأمواج جلسنا، وكان الموج المتعب يتكسّر على أقدامنا المدلاّة في اللّجة، فيما أخذت شمس أكتوبر تغسل العالم بالبرتقالي.

«فاغليو» بقربي وقلبي يضحك، وحيدان مع ثغاء النوارس وهمهمات بحر يسلّم زرقته لتتالي الألوان في هذا الوقت من النهار، وحيدان مع صخب الأفكار ولهاث المشاعر التي تفتّش عن مفردات تحررها من حبسها.

بكلمات متعثرة بلغات شتّى، بخطوط ودوائر على صفحات دفترها، وبإيحاءات العيون وشارات الأصابع، أخذنا نتحدث كناس الكهوف. وحين كان الأمر يعصى على الفهم تماماً، كنا نرجئ الحديث فيه إلى ما بعد عودتنا إلى «صوفيا»، فثمة في «صوفيا»، كما شرحت لي طويلاً، طالب يوناني اسمه «بنايوتيس» يتقن الإنجليزية ويهتم بالشعر ويكتبه أحياناً.

– هل تكتبين شيئاً يا «فاغليو»؟

– لا، ولكنني أحب «لوركا» و«نيرودا»، «جبران خليل جبران» و«ريتسوس».
– «ريتسوس»؟
– نعم، «يانيس ريتسوس»، إنه شاعر يوناني كبير.
وفجأة، نظرت إلى أعالي البحر، تراخى جسدها قليلاً، وأخذت تستظهر قصيدة لـ«يانيس ريتسوس» باليونانية، لا أدري لماذا كنت أحلّق مع دفق المعاني المبهمة من بين شفتيها كأنني في كنيسة عزلاء على السفوح البعيدة.
ادلهمّت السماء وغرق البحر في السواد، فغادرنا المكان. لم نسلك دروب الغابة الصغيرة ومشينا على رمل الشاطئ طويلاً حتى الفندق.
في المساء التالي ليوم عودتنا إلى «صوفيا»، وصلت رغبتي في رؤيتها إلى أقاصيها. كنت أعرف أنها تتردّد على مقهى قريب في النفق تحت «شارع لينين» مع بعض أصدقائها اليونانيين.
حسمت ترددي وذهبت إلى هناك. وهناك، في غمار الدخان والأضواء الملوّنة الخافتة، لمحتها، وحين رأتني، قامت وصافحتني بحرارة.. وعرّفتني على «بنايوتيس»، الطالب اليوناني الذي يتقن الإنكليزية ويحبّ الشعر ويكتبه أحياناً، كانت نظراته حادّة وذكيّة وصريحة من خلف زجاج نظارتيه.
صافحني بحرارة، والكلمات تتدافع من بين شفتيه الرقيقتين بطلاقة ووضوح ومودّة:
– حدثتني عنك «فاغليو»، أنا أيضاً أحبّ الأدب وأهتمّ به كثيراً. أحبّ الفلسطينيين، أحترم نضالاتهم وأتعاطف مع عذاباتهم.. أعتقد أننا سنكون أصدقاء جيّدين.
– أين تسكن؟ سأزورك قريباً، أين ستدرس بعد السنة التحضيرية؟
– في جامعة «صوفيا»، صحافة.
– حسناً. أما أنا، وبناء على رغبة والديّ، فسأدرس الكيمياء. إنه اختصاص للأذكياء، ولست ذكياً بما فيه الكفاية.. ولكنه أيضاً اختصاص يقتل المخيلة. على أيّ حال، أنا أبحث الآن إمكانية التحوّل إلى مجالٍ آخر، ربما الصحافة.
على الرغم من المودّة التي شعرتها إزاء «بنايوتيس»، فإن حضوره على هذا النحو العاصف لم يرق لي كثيراً، وفي تلك اللحظة بالذّات. في الصباح، التقيت «بنايوتيس» من جديد عند باب المعهد، اندفع إليّ كهواء ثقيل وأصرّ على دعوتي لتناول القهوة في مقهى مجاور. ومن المقهى إلى مقهى آخر، إلى حديقة الحريّة على طرف المدينة.. إلى محطة القطارات.. ثم رتّبنا مع مدير السكن الجامعي أمر انتقاله ليساكنني الغرفة التي كنت أشغلها. في غرفة رقم 309 على الطابق الثالث من بناية رقم 17 بمدينة الطلبة، أقمنا معاً أكثر من عامين.
بعد أن تحسّنت لغتنا البلغارية قليلاً، رأت معلمتنا «الأم إيفانوفا» أن تعطينا، للحفظ، مقاطع من قصيدة

«السلام» لـ«يانيس ريتسوس»، الشاعر الذي تحبّه ويحبّه الكثيرون في بلغاريا.
أخذت نسخةَ من قصيدة «السلام» إلى غرفتي، وبمساعدة القواميس و«بنايوتيس» استطعت تعريبها..
وفي الليل، أعدت صياغتها بشيء من الولع، وأخذت أقرأها فرحاً بإنجازي:

«السلام..
أن يعود العامل مساء السبت
إلى بيته
حليقاً ومحملاً بالغلال،
أن تنهض السنابل في الصباح،
تتطلع إلى الشمس
وهي تهتف: ضوء، ضوء!
هذا هو السلام.
السلام..
حين الطرق على الباب
يعني صديق،
وفتح النافذة
يعني سماء،
سماء تعلن أول الربيع.
السلام
هو الماء الذي يبرد
في الجرّة المركونة إلى النافذة
والورد الذي ينمو
في بقايا القذائف..
هذا هو السلام».

كنت أعيد صياغة القصيدة كأنني أكتب قصيدتي. سيتملكني شعور مشابه بعد ثلاث سنوات، حين سأعكف خلال ليالي الشتاء الطويلة على ترجمة رائعة «ريتسوس»: «سوناتا ضوء القمر».
أخذ ولعي بـ«ريتسوس» يروق لـ«بنايوتيس»، فجاءني يوماً بمختارات من أشعار «يانيس ريتسوس» باللغة البلغارية بعنوان «جذور العالم»، كنّا نقرأ القصائد مراراً. يرتّل القصيدة باليونانية، نقرأها

بالبلغارية، ثم أقرأها بدوري بالعربية.
وعلى هذا الغرار كان الأمر مع راسخين آخرين في مضمار الكتابة، كنت أترجم له «للنضري» و«أدونيس» و«محمود درويش»، وكان يترجم لي مقاطع من «سيفيريس» و«إيليتس» و«كافافي». كنت أقرأ له مقاطع من «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح و«دمشق الحرائق» لزكريا تامر، وكان يقصّ عليّ من سيرة «كازانتزاكيس»: «الطريق إلى غريكو»، كنت أحكي له عن ليالي الشام وحنيني إلى الجليل الذي لم أطأه، فيحدثني عن الحجارة والشمس والبحر وقهر أبيه المناضل الشيوعي في منافيه.
كانت جدران الغرفة الصغيرة، التي تحمل الرقم 309 مزدانة بصور الأحبة البعيدين، بآيات من القرآن الكريم، ووصايا من العهد الجديد، بمقاطع من «نيتشه»، ولحظات من «بريفير»، بصاوي لؤي كيالي وألوان «غوغان».. بصور من «روذوس» وأخرى من الناصرة.. وكانت لياليها تعجّ بدخان السجائر ورائحة النبيذ، بعبق الصديقات وصخب الثرثرات الأثيرة في شتى الميادين. «أيّا» تتحدث عن طقوس الدفن في الريف الفنلندي، و«رادكا» تحكي عن الدبابات السوفييتية وهي تسحق ربيع براغ، «سفتلا» تشيد بشهود «يهوا ودافنيس»..
يتذكر أمه التي قتلها الأتراك في قبرص.. «إندالي» الأثيوبي، يفصح عن إعجابه بوديع حداد، و«فلاديمير» يمطر الحاضرين بوابل من النكات عن سكان جورجيا.
وكان «ريتسوس» ضيفاً دائماً على هذه الغرفة، وكانت أشعاره وسيرته، وأي جديد عنه، مثار اهتمام الجميع.
ولم يكن يرقى إلى مستوى أشعار «ريتسوس» وحكايته سوى أحجاره، تلك الكتل البازلتية الصغيرة التي كان يلتقطها الشاعر من شواطئ جزر منفاه، وينحت عليها بالسكين رسوماته وكلماته. وكانت شهرة هذه الأحجار تضاهي شهرة «ريتسوس» وإنتاجه الغزير.. فها هو الشاعر الفرنسي «أراغون» يفاخر باقتناء واحد من مجموعة أحجار «ريتسوس».
وتطلب وزارة الثقافة الإسبانية الإذن من الشاعر لتزين إصداراً جديداً لأشعار «لوركا» بصورٍ لهذه الحجارة.
صيف 1981 ذهبت إلى اليونان مع «بنايوتيس».. ذهبت إلى اليونان التي صرت أعرفها، كما يعرف المرء بلداً ولد وعاش وينتظر الموت فيه. وهناك رأيت الكثير، وسمعت الكثير، وغاب عني الكثير.. وكنت أجد مع كل خطوة تجسيداً لما كنت أعرفه عن الناس والبحر وصخب الليالي.. ولم يبق لي سوى أن أتسلق واحدة من قمم اليونان العالية، اللقاء بـ«ريتسوس».
هاتفه «بنايوتيس» في بيته الكائن في شارع «ميخائيل كوراكا» رقم (29) في أثينا، فحدّد الشاعر موعداً لاستقبالنا الساعة السابعة مساءً.

كان طقساً صيفياً بديعاً، فآثرنا الذهاب إلى موعدنا سيراً على الأقدام. من ساحة «السينتاغما» وسط أثينا، عبرنا حارات تعجّ بالحياة.. إنه الوقت الذي يستيقظ فيه سكان أثينا من النوم هروباً من حرّ الصيف الشديد، وينطلقون فيه إلى لهوهم الليلي الطويل..

وصلنا إلى أول الشارع، شارع «ميخائيل كوراكا»، فانتابني شعور ملتبس، وخفق قلبي قليلاً، كأنني على مشارف معركة أو موعد غرامي.

ميخائيل كوراكا 3:

عن أي شيء أحدث «ريتسوس»!

ميخائيل كوراكا 7:

فجأة تجتاحني قصيدة الأمريكي «آلن غينسبرغ» عن شواطئ بحيرة طبريا.

ميخائيل كوراكا 15:

أنا ذاهب للقاء ريتسوس الذي قال عنه الفرنسي «أراغون»: إنه أعظم شاعر حيّ.. وكتب التشيلي «نيرودا» يخاطبه: «ننحني كي تمرّ أيها الشاعر»!

ميخائيل كوراكا 19:

الشمس في الأفق الغربي، في نهاية الشارع، ومشهد انعكاساتها على النوافذ والشرفات يحملني إلى الحارة البعيدة، حيث صخب الأولاد وهم يستحمون من الضجر اليومي بماء المزاريب، ثم يتسلقون شجرة التوت العالية في باحة المدرسة.

ميخائيل كوراكا 21:

أشم رائحة التين من شجرة في الطريق، فتستيقظ فيّ رائحة الأرض المحروثة توّاً في قرى الشمال السوري.

ميخائيل كوراكا 25:

«فاغليو» تجلس بقربي على كاسر الأمواج، يغسل الموج قدميها، تنظر إلى أعالي البحر، وترتل أشعار «ريتسوس». في تلك اللحظة المفعمة بالحيرة والبهاء والرغبة، بدأت رحلة انشدادي إلى «ريتسوس».

ميخائيل كوراكا 29:

هنا يسكن الشاعر.

نصعد إلى الطابق الرابع.. أرتعش مع رنين جرس الباب. يفتح «ريتسوس»، يطلّ بقامته المبنية جيداً، وبوجهه الملتحي الذي طالما شاهدته في الصور الكثيرة على أغلفة الكتب وصفحات المجلات، يعانقنا ويدعونا إلى صالون بيته الصغير المكتظ بالكتب واللوحات والأواني والحجارة. بالكاد نجد أمكنة لجلوسنا على الأرائك والكراسي المثقلة بأكوام الكتب والدفاتر والصحف.

بعد ترحاب مقتضب، يدخل «ريتسوس» إحدى غرفتي بيته ويعود في الحال – كأنه لا يستطيع كظم فرحه الطفولي بإنجاز فريد وجديد – يعود وبين يديه كتاب ضخم بحجم نصف قامته: مختارات من أشعار «ريتسوس» باللغات الأربع: الإنكليزية، والفرنسية، والإسبانية، واليونانية. بحروف مطرزة بخيوط ملونة، أصدرته منظمة «اليونيسكو» احتفاءً ببلوغ الشاعر السبعين من عمره. كان «ريتسوس» محقاً في فرحته بهذا الثناء المتميّز لشاعرٍ متميّز من منظمة مرموقة.
يركن «ريتسوس» الكتاب الكبير إلى الجدار، يقلب صفحاته جزلاً كأنه طفل يلهو بدمية قدمت له للتوّ.. ويقرأ بصوت قوي طريّ كأنه السنديان.
لحظات ويتبدد الوجل.. كأنني أعرف المكان وساكن المكان منذ سنين. نصنع قهوتنا بأيدينا، ونتحدث عن الشعر والثورات والمنافي، عن الشعوب والحبّ والبلاد. يشيد «ريتسوس» بـ«ياسر عرفات» وأشعار محمود درويش، ويلعن احتلال الأرض المقدسة. وبسبب مرضه، لم يغادر «ريتسوس» اليونان منذ سنوات ولكن – كما يقول – فإن أول زيارة له خارج اليونان ستكون إلى القدس المحررة.
أرمق أحجار «ريتسوس» البديعة المنضدة هنا وهناك، على الرفوف وفي الزوايا.. ينتبه الشاعر فيعي كنه رغبتي.. يمد يده ويتناول حجرين؛ حجراً لي وحجراً لصديقي.. يا إلهي!
أي سخاء هذا، وأية غبطة تندلع في حناياي؟
أزفت ساعة المغادرة.. نستأذن مضيفنا فيصرّ على مرافقتنا حتى مدخل العمارة.. وهناك يعانقنا قائلاً: أنا في انتظارك، صيف العام القادم، لتناول النبيذ في حانات أثينا.
في الطريق إلى بيت صاحبي، أحنو على تفاصيل اللقاء كلها، كمن يحمل ماء في كفّه، وأحنو على الحجر.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.